

## كلام في مباني الأخلاق من منطق معارف أهل البيت عليه السلام

محمد إسماعيل مدرّس الغروي

### الخلاصة

نيل الفضائل الأخلاقية أمر ممكن من طريقين؛ طريق إلهي وطريق بشري. أما الطريق الإلهي؛ فمفتاح كسب الأخلاق الحسنة؛ فمعرفة الله تعالى.. وطريق الوصول إلى ذلك؛ طلب إعطاء المعرفة من قبل الله ﷻ، إذ «المعرفة صنعه» ونتيجة ومنتهى هذا الطريق -و- خلافاً للطريق البشري- قطعي؛ وطئيه ميسور للجميع. وطبقاً لمعارف أهل البيت عليهم السلام؛ فإنّ تأثير العوامل الخارجية في الأخلاق، وإن كان حقيقياً، إلّا أنّه لا دور له في اختيار الشخص، وذلك أنّ الاختيار يلي جميع المؤثرات.. والمسألة الأخرى هي أنّ القدرة الإلهية المطلقة -فيما سوى أفعال الإنسان الاختيارية- غالبة وقاهرة على جميع هذه المؤثرات. وعليه؛ فإنّ الاختيار وكذا القدرة والمالكية الإلهية محفوظان في طبيعة وحقبة أفعال البشر، وهذا هو معنى «الأمرين الأمرين». ونظراً لما مرّ.. ستفتح ثلاثة أبواب للمعارف: الرياضات والمجاهدات، والتّوفيق والخذلان، والإمتحان والاختبار..

المصطلحات: الأخلاق، الغزالي، معرفة الله، عالم الدّر، أمرين الأمرين، التّوفيق،

الإمتحان

## المقدمة

بدءاً؛ نشير إلى رواية كريمة عن مولانا الإمام الصادق عليه السلام، لأجل مزيد الالتفات إلى المباحث المعرفية والمعارفية.. قال الراوي: سألته عن قول الله ﷻ:

«وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا» قال: «يعني: لأمددناهم علماً كي يتعلمونه من الإنثمة» ومن هنا؛ ينبغي الالتفات إلى أن جميع الحركات والنشاطات العلمية والمطالعات المعرفية يجب أن تكون وفقاً للطريق والمنهج الذي أرشد الله تعالى إليه.. وليس الطريق هذا غير طريق أهل الذكر: «فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» وقد قال أهل البيت عليه السلام: «نَحْنُ أَهْلُ الذِّكْرِ» ومن جملة المعارف التي أرشد إليها النبي الأعظم والأنثمة المعصومون عليه السلام: مسألة المعارف الأخلاقية.. بل إن الرسول الأكرم ﷺ حدّد الهدف والغاية من بعثته؛ تكميل مكارم الأخلاق، فقال: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»



## معرفة الله؛ الأساس الديني للأخلاق

أحد أهم نظريات علم الأخلاق، في مباحث أبي حامد الغزالي، واللازم أن تطبّق على مباني أهل البيت عليه السلام.. والغزالي هو أحد كبار علماء أهل السنة في السير والسلوك الأخلاقي هي: التربية الأخلاقية عن طريق (معالجة الضد) حيث يعتبره هذا الغزالي عاملاً مؤثراً.. وحسب قوله: كما أن الأمراض البدنية هي عبارة عن خروج البدن عن حدود اعتدال المزاج وضرورة المعالجة بما هو ضده، فإن الأمراض الروحية يجب أن تعالج من هذا الطريق. فلمعالجة الخوف والجبن، ينبغي للفرد أن يرمي بنفسه في أنواع المخاوف والمهالك ليزول خوفه.. وقد أورد سعدي الشاعر حكاية جاء فيها: أن شخصاً من الأشخاص كان مصاباً بالهلع من سفر البحر، فأمسكوا بيده ورموه إلى البحر ليزول خوفه وهلعه. وكذلك هو أسلوب معالجة بقية الرذائل الأخلاقية.. ونحن نرى أن الطريقة التي اقترحها الغزالي بحاجة إلى فترة زمنية مديدة وإلى عمر طويل.. ومن جهة أخرى؛ فإن المسار المقترح من قبل الغزالي بحاجة إلى معرفة نظرية، وهي ما ليست

متوفرة للجميع .. وكذا؛ فإنَّ قياس الأمراض الرُّوحِيَّة؛ فهي ليست كذلك، أي أنَّ الإنسان يغفل عنها في الغالب ..

والمؤسف في الأمر؛ أنَّ الذين يتعمَّقون في المباحث الأخلاقيَّة؛ يأخذون عن الغزالي .. حتَّى أنَّكم إذا طالعتم كتب المتأخِّرين، رأيتم مسارها ذات مساره .. والغزالي لدى بيان مباني الأخلاق لم يرجع إلى القرآن الكريم وأهل بيت العصمة والظَّهارة عليهم الصَّلَاة والسَّلام، وإنَّما اعتمد علمه وتحقيقاته وحسب .. وكما مرَّ؛ وجدنا الإمام الصَّادق عليه السَّلام قال في تفسير الآية القرآنيَّة القائلة: «لأمددناهم علماً كي يتعلَّمونه من الإنمَّة».

والموضوع المهمُّ الآخر؛ هو أنَّ الذين متَّسق مع الفطرة الإنسانيَّة وقائم على أساسها، ولذا؛ أكَّد النَّبي الأكرم ﷺ على أنَّ الذين الذي جاء به هودين العموم، والقرآن الكريم قال أيضاً: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَفَّةً لِلنَّاسِ».

ومن جهة أخرى؛ فإنَّ الطَّرِيق الذي أشار إليه الغزالي وأتباعه لتحصيل الأخلاق الكريمة ليس طريقاً عامّاً .. إذ هو يستغرق عمراً مديداً ويستنقذ إمكانات كثيرة، لا تكفيه أعمار أكثرية النَّاس، كما أنَّ تلكم الإمكانيات والطَّاقات غير متوفِّرة ..

أمَّا الطَّرِيق التي دلَّ عليها صاحب الشَّريعة؛ فهو معتدلة متساوية بالنِّسبة لجميع النَّاس، وللعالم والجاهل، وللعربي والعجمي، والعامي والفيلسوف، والأميِّ والمحقِّق .. وهو طريق عملي للجميع؛ لأنَّه مطابق للفطرة، ولا يتطلَّب علماً ولا مالاً ولا رياضة ولا إبتعاداً عن مواهب الحياة ...

وقد ورد التَّأكيد في الآيات والروايات على أنَّ النَّبي الأعظم ﷺ قد بعث ليتَّمم مكارم الأخلاق .. وهو بنفسه الشَّريفة المقدَّسة كان يحظى بـ (الخُلُق العظيم) إذ قال الله تعالى فيه: «وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ» فمن بعث ليتَّمم مكارم الأخلاق ومن كان على خُلُقٍ عظيم قد إختط للنَّاس طريقاً ومنهجاً .. ولا بدَّ من الرُّجوع إليه بحكم العقل .. ولإِطلاع على المنهج النَّبوي وطريق الأئمَّة في مسألة الأخلاق؛ لا بدَّ من الرُّجوع إلى الكتب والمصادر الحديثيَّة والروائيَّة.

أما طريق وأسلوب الغزالي وأتباعه، فيمكن أن يؤدي إلى نتيجة مرجوة، ولكن حتى بالنسبة إلى من يوفق إلى النتيجة المرجوة عبر هذا الطريق، فإنه لا ضمانه مؤكدة له للبقاء على الكمالات الأخلاقية، اللهم إلا أن يصمد على المعالجة بالصدأ... وهذا لعمري طريق عسير..

وعليه؛ فإن هذا الطريق غير ممكن للجميع بنسبة مطلقة، كما أن البقاء عليه غير يسير.. أما إذا اتخذ الطريق الذي اختطه الأئمة عليهم السلام منهاجاً ومساراً؛ فإن فيه الضمان عن عدم الغفلة عن الله تعالى.. ومرادنا مما تقدم هو أن الله سبحانه يريد من البشر أن يتوجهوا ويلتفتوا إليه - فزوا إلى الله - إذ الحركة الإنسانية ينبغي أن تكون في الله تعالى وبالله سبحانه.. والتظرة يجب أن تكون بالله وفي الله.. فإن أردت تلئس الأخلاق الحميدة، فليس لك إلا الذكر الدائم.. والإنسان تارة وفي بعض حالاته ومراحل حياته يجد نفسه في اللاشيء.. ولكنه كلما ازداد معرفة؛ كلما ازداد رفعة.. وهو حين يتوفر على الغنى بالله ويقول: يا الله.. سيسمع الله يقول له مجيباً: لبّيك عبدي...



إن الطريق الذي وصفه الآخرون، وإن كان يحمل معنى الرياضة النفسية، ولكن لكونه اختيار شخصي بشري، لا بأمر من الله تعالى، وإنما هو لإرضاء النفس، فإنه لا يؤدي إلى النتيجة المطلوبة.. وحسب التعبير العلمي: «دفع الأفسد بالفساد» ولكن ثم نبياً قد بعث وجاء لينقذكم من حفرة النفس وهاكها، ولإعادتكم إلى الأصل والقطرة؛ «من عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ»

اللَّهُمَّ عَرَفْنِي نَفْسَكَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي نَفْسَكَ لَمْ أَعْرِفْ نَبِيَّكَ، اللَّهُمَّ عَرَفْنِي رَسُولَكَ [نَبِيَّكَ]؛ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي رَسُولَكَ لَمْ أَعْرِفْ حُجَّتَكَ اللَّهُمَّ عَرَفْنِي حُجَّتَكَ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي حُجَّتَكَ صَلَّلْتُ عَنْ دِينِي

وإن قيل: إن من الممكن أن يغفل في هذا الطريق.. فهو طريق غير مضمون..

فجوابه: إن عدم الغفلة ميسر للجميع، أي أنه طريق يمكن للجميع أن يطووه، بخلاف الطريق الذي اقترحه الغزالي في نفسه.. فالله تعالى يقول في القرآن: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾

فما لم يغفل ابن آدم، فإنَّ التَّوفيق هذا يكون من نصيبه .. والله قد خلقنا لأجل ذلك فلتفت ونصمد إليه فينعم علينا بنعمه.

إنَّ ما يقال في باب الأخلاق الإنسانيَّة خلاصة ما أدلى به العلماء من معلمي الأخلاق البشريَّة .. وإذا ما طالعتهم مادون مؤخراً من قبل العلماء، سترون أنَّه جميعاً قائم مستقي من أقوال الغزالي، كما في كتاب (المحجَّة البيضاء) الَّذي اقترح المعالجة بالصد، و لكن طريق أهل البيت (عليه السلام) هو ذكر الله ومعرفته سبحانه الَّذي يجسد أساس الأخلاق الفاضلة في المعارف الإسلاميَّة.

وما ترونه في بعض الروايات الشَّريفة من أنَّ: «أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ» لأنَّ جميع الفضائل والكرامات والصفات الحسنة تقع في ذيل «معرفة الله» وإنَّما تحرَّز من هذا الطَّريق .. وطبعاً لا بدَّ من ملاحظة أنَّ «معرفة الله» وفي أيِّ باب تلاحظ كونها متناسبة وموضوع ذلك الباب. فمعرفة الله في باب التَّوحيد أو باب المعاد تتناسب معها .. ومعرفة الله في باب الأخلاق تتناسب والمسائل الأخلاقيَّة .. وأسلوبنا في البحث هو أنَّنا نبين المعارف القرآنيَّة والروائيَّة.

إنَّ الولوج في دائرة الأخلاق يتسبَّى من طريقتين؛ طريق الأنبياء وطريق البشر .. ونحن نعطف المطالب ضمن آفاق نور العقل والوجدان على القرآن والروايات .. ونبحث المسائل وفق قوله تعالى: (فَبَشِّرْ عِبَادِ \* الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) ثُمَّ نختار الأفضل .. أمَّا (القول) هنا؛ فمطابق للمعيار، والمعيار هنا هو الكتاب وسنة الرَّسول و آل بيته الطَّاهرين .. فنقيس الكلمات وفقاً للآيات القرآنيَّة الشَّريفة الروايات الكريمة، فإن كان الاختيار هو هذا المسار؛ فبها، وإلاَّ فإنَّه المسار الَّذي قدَّمه الشَّيطان لنا ..

فإذا أنفق الإنسان الموحَّد والمسلم، وكان إنفاقه بدافع شخصي، فإنَّه وإن كان قد خالف نفسه الحريصة على المال في ذلك، إلَّا أنَّه قد إختار طريق الإنفاق من أجل نفسه وإرضائها، وأضحى طريقه طريقاً شيطانياً .. إلَّا أن تكون مخالفته نفسه إنطلاقاً من أقوال أهل البيت (عليه السلام) ..

وقد نُقل أنَّ مرتاضاً التقى الإمام الصادق (عليه السلام) وكان يخبر عن أشياء، فسأله الإمام بالقول: ماذا تعلم مما في يدي؟ فقال المرتاض: هويضة طائرأتيت بها من غابة كذا. فقال الإمام: ماذا فعلت حتى نلت هذه القابلية والقدرة؟ فقال الرجل: هي مخالفة النفس! فقال الإمام: حيث خالفت نفسك في كل شيء؛ فلم تُسلم؟ فإن أردت؛ فخالف نفسك في ذلك وأسلم! فلم يقبل الرجل.. ولكنّه حين أسلم في نهاية المطاف فقد قدرته على الإخبار... فقال الإمام: خالف نفسك ولكن من طريق الله!..

إنَّ رسول الله ﷺ قد جاء لينقذنا من بثرويل النفس، وينجيننا من مهلكة النفس الأتمة بالسوء، ويلفت أنظارنا وعقولنا إلى فطرتنا والغاية من خلقنا فيجعل كل واحد منا «عبداً» مسلماً لمولاه، بمعنى أن يكون فقيراً بالذات.. ينظر إلى سيّده بحيث إذا أعطى عبده الدنيا برمّتها؛ فإنّه يبقى غنياً لا ينقص من خزائنه شيء.. وبحقيقة هذا المطلب لا يبقى لبخل العبد معنى.. فتراه ينفق ما عنده في سبيل الله، لأنّه يرى أنّ الله يعطيه ما يريد.. كذلك الأمر في الإنفاق من العلم والشّجاعة و... وفي جميع هذه الصّفات؛ إذا انطلق المرء من وجدانه؛ يكون قد تخلّق بالأخلاق الحميدة لأنّه يراها جميعاً صادرة عن مصدر واحد؛ وهو يعتمد على ويتكيى عليه.. وهو كلّما تقرب منه؛ اغتنى أكثر وأكثر.. و هنا يجد قوله المجيد: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ مصداقاً رائعاً، وذلك أنّ معرفة الله الطّريق الأوحد لتزكية النفس الإنسانيّة، فإن يتقنّت بالله تعالى وعرفته وشاهدت ولمست غنى الرّب المتعال.. هنالك ستقول: «يَا ذُخْرَ مَنْ لَا ذُخْرَ لَهُ، يَا حِرْزَ مَنْ لَا حِرْزَ لَهُ، يَا كَهْفَ مَنْ لَا كَهْفَ لَهُ، يَا كَنْزَ مَنْ لَا كَنْزَ لَهُ» وهنالك لن يتسلل إليك القلق إزاء افتقارك لبيت أو مال.. لأنك أيقنت بالرّب الذي لا تنفذ خزائنه.. وليس هو بالبخل على عبده..

وهكذا كانت حياة وسيرة الأنبياء والأولياء في مواجهة الطّواغيت والجبابرة، فقد كان الأنبياء يقولون: لنا ربّ، وإنّما ندعوه بما أمرنا وأراد منا.. ياترى ماذا كانت أسلحة الأنبياء؟ فإذا كانوا يريدون مواجهة الطّواغيت بالشّجاعة، ما كانوا ليلقوا بأنفسهم في المهالك.. وإنّما كان يقينهم برّبهم وإلهم الواحد الأحد يدفعهم إلى أن لا يهابوا شيئاً باطلاً.. وهكذا وجدنا إبراهيم الخليل (عليه السلام) حين رمى عدوّه به إلى التّار؛ لم يخشه ولم

يخشى النار .. ولما قيل له: أدخل النار؛ دخلها بلا خوف وهلع .. ولم يسمع لفكرة و شعور الجوع والمرض؛ لأنه اعتمد رباً وإلهاً بيده دواء كل الأمراض ..

و حين تقول: «يا مسبب الأسباب» فله - الله رب العالمين - أن يحدد السبب، ولعله لا يرسل وسيلة ذلك من السماء، ولكنه سبحانه يُدِلُّ ويرشد، ويهيئ الأسباب .. وعليه؛ لك و عليك أن تقول: «يا مسبب الأسباب! سبب لنا سبباً» فإن كان لك هذا المستوى من اليقين ستتحوّل بالأخلاق الواعية الصادرة عن وعي ومعرفة .. فهذه الأخلاق ليست تعليمية ولا تحرز بالقراءة .. وإنما هي بحاجة إلى تمرين وتذكّر .. ولابن آدم أن يكون معلماً للأخلاق حين تتوفّر فيه الأخلاق الإلهية .. وكيف يمنع تناول الرطب من يأكله؟!

وقيل أن أحدهم جاء المرحوم الميرزا الإصفهاني ومدح شخصاً في محضره على أنه من أهل التزكية وأن عنده قابلية إنخلاع الروح. فقال الإصفهاني: إن أخبرك أحدهم بأن كان اليوم في سوق العطور .. فاقترّب منه، فإن كانت فيه رائحة عطر؛ فصّدقه .. وكذا من كان متخلّقاً بالأخلاق الكريمة، يلزمه أن يفوح من أقواله وأفعاله عطر الأخلاق الفاضلة .. وكذا تجارته ودرسه وسلوكه مع أسرته وجميع حركاته وسكناته يجب أن تدلّ على عالم المعنى .. وأما إن كان غافلاً عن كل ذلك؛ فيعلم أن ما يقول مجرّد لقلقة لسان و لا يؤمن بما يقول: [وإذا كان مؤمناً؛ فهو مؤمن مستخفّ ..] إذ لو كان مؤمناً بما يقول حقاً .. لاتّصف به .. وعليه؛ إذا كانت معرفتي برّبي بحدود اليقين والإيمان الرّصين بأنّه سبحانه «لَا يَزِيدُهُ كَثْرَةُ الْعَطَاءِ إِلَّا جُوداً وَكَرَمًا ..» فإنّني لن أبخل بعد ذلك ولن اضطرب .. فيما إذا ضعفت معرفتي؛ ضعفت أخلاقي.

ويقول أتباع الغزالي: ينبغي للإنسان أن يعمل بخلاف نفسه، فإذا أعطى مالا؛ فليعط بههدف مخاربة بخله.

أما أهل البيت (عليهم السلام) فيقولون: ليكن العطاء والإنفاق بإعتبار أن الله تعالى غنيّ بالذات؛ ونحن لسنا غير وسيلة .. فالله هو الذي يعطي؛ وغناه لا أوّل ولا آخر له .. وحركة الفرد

المؤمن والعارف ينبغي أن تكون بجهة ربِّ إذا أُعطي؛ يتَّصل به العطاء والكرم الذي لا أول ولا آخر له.

وإذا ما سأل أحدهم عمّا إذا رحل بمقترحهم ومنهجهم أتباع الغزالي وشفّي من مرضه مثلاً.. أفلا يدلّ هذا على صواب منهجهم؟

فنقول في معرض الإجابة: ترى هل أنّ هذا الطّريق هو ما أرشد إليه نبيّكم صلوات الله عليه وآله؟ لا ريب أنّ الإجابة سلبية، إذ هو طريق شيطاني .. وإن كان شأنه كشأن المتراضين الذين يبدو أنّهم بلغوا كمالاً في الظّاهر...

إذن فمفتاح إكتساب الأخلاق الحسنة والفضائل والكرامات الإنسانيّة: (معرفة الله) وطبعاً إنّ (معرفة الله) تهيمن على كلّ باب بالتّسبة لموضوعها .. وقد ذكرنا أنّك أنّك أنّها الإنسان متى ما أيقنت برّبك الذي هو «العزّيزُ الجبارُ المُتَكَبِّرُ العَلِيُّ العَظِيمُ المُقْتَدِرُ الْقَادِرُ» فإنّك لن تهاب أحداً أو شيئاً.. وإنّما الخوف سيلمّ بك حين تتحرّك في طريق مجرّد عن رضا الله تعالى و خلافاً لإرادته فترى إذ ذاك قد هويت في المهالك .. إمّا إذا كنت متكئاً على الله وأيقنت بأنّ ربّك غنيٌّ بالذات، و علمت إنّك إن ملكت شيئاً فإنّما ملكته ملكاً غير دائم أو من عند نفسك .. والله قادر على أن يعطيك ويسلبك إياه، وإن أعطاك فمن فضله، وإن منعك فبحكمه ... إن تحصّلت لديك هذه الشّاكلة من المعرفة لن تعود مهتماً باليد التي تمتدّ إليك وتساءلك .. وإنّما العطاء في سبيل الله هو ما سيكون معيارك وغايتك.

وإن سألت عن كيفيّة إكتساب المعرفة؛ وجدت أهل البيت (عليهم السلام) يقولون: «المعرفة صنعُ الله». فإن أردت المعرفة؛ عليك أن تطلبها منه سبحانه .. إذ أنّك أنّها الإنسان -محاطٌ؛ فكيف لك أن تحيط بذلك المحيط؟ إنّما عليك أن تطلب المعرفة به ليعرّفك سبحانه نفسه، و عليك أن تستقيم وتديم القول: «اللّهُمَّ عَرِّفْني نفسك» وهكذا يكون مفتاح الوصول إلى جميع الأخلاق الحميدة والفضائل؛ المعرفة بالله تعالى .. وواضح أنّ هذا المطلب من أيسر الأمور وأسهل الأشياء .. لماذا؟ لأنّ «المعرفة صنعُ الله» و عليك

أن تتعلّق بأذيال كرمه، فتطلب منه المعونة واليقين .. وهذا هو أوّل المطلب ووسطه ومنتهاه .. هذا إن سمحت لك النّفس الطّامحة.

و حين تدخل الأخلاق الحميدة؛ تخرج وتغادر الأخلاق الرّذيلة .. و حين يدخل الخير؛ يخرج الشرّ .. ولكنك حين لا تأتي بخير؛ يبقى الشّر في موضعه .. وكلّما زادت المعرفة واليقين؛ تناقصت الرّذائل .. و ذهب البخل والحسد والتّكبر .. ولكن! لماذا التّكبر؟ فحينما تعرف ربّك؛ ستعرف نفسك .. ومهما عرفت من غنى الله؛ وجدت الفقر في نفسك .. وكلّما عرفت علمه سبحانه على أنّه لا أوّل ولا آخر له وتأكد لك بأنّ تعالى عالم بالذّات، عرفت جهلك الدّاتي .. وهكذا هو المطلب اللازم لكل طالب للأخلاق الحسنة .. وعليه؛ فإنّ الطّريق الذي رسمه النّبي الأكرم ﷺ وآله وأرشد النّاس إليه .. هو طريق ميسور للجميع، ولا مانع ولا رادع دونه إلّا غفلة ابن آدم وإنعدام الإرادة فيه ..

### دور العوامل الخارجيّة في الأخلاق

البحث في هذا الشّطر من المقال: تأثير ودور المقتضيات في أعمال الإنسان .. فهل أنّ المقتضيات الطّيبة تستدعي الطّاعات على سبيل الحتم واللّزوم؟ فإذا ما ولد شخص من نطفة طاهرة طيّبة، وكان أبواه صالحين وقد راعيا فيه الأصول الصّحيحة في التّربية .. فهل أنّه ستصدر عنه أعمال صالحة على سبيل الإلزام؟ وعكس ذلك؛ ما إذا وُلد من نطفة زنا مثلاً، ولم تتوفّر في بيئته التّربويّة - أسرة ومجتمع - الشّروط المطلوبة، فهل ستصدر عنه الأعمال السيّئة على سبيل الحتم والإلزام؟

ما هو مسلّم أنّ مقتضيات الأعمال الصّالحة والسيّئة بمثابة الأرضيّة في ميل ورغبة الفرد إلى الصّلاح أو السّوء .. فمن كانت نطفته وطعامه طاهرين، فلا ريب أنّه ستتركّز فيه الرّغبة والميل إلى الصّلاح بمعادلات كبيرة، وأكثر ممّن كانت نطفته وطعامه غير طاهرين .. وعلى هذا؛ فإنّ العوامل المذكورة ومثيلاتها ستؤثّر - إلى حدّ بعيد - في أخلاقه وأعماله. وبعبارة أخرى؛ إنّ كل أثر موافق لطبيعة مؤثّرة .. وهنا ثمّ سؤال يطرح نفسه؛ و هو: إذا كان الأمر كذلك؛ فلماذا يستحقّ العاصي العقاب؛ والمطيع الثّواب؟ وهذان في

عملهما تعلّقاً بعوامل جبريّة مختلفة؛ ولم تكن لهم الخيرة فيما صدر عنهما ...!

### ولدى الإجابة على هذا السؤال ثمّ سبيلان:

١- أن نقبل بتأثير (العوامل والمؤثرات) على سبيل الإلزام، وبالنتيجة سنؤمن بالجبر في نهاية المطاف.

٢- أن ننفي تأثير (العوامل والمؤثرات) عموماً، وبالنتيجة سنؤمن بعدم وجود دور لها في أفعال الإنسان.

ولكنّا نذهب إلى أنّ السبيلين هذين موضع خطأ فادح، فإذا ما نفينا دور المؤثرات والمقتضيات؛ سقطنا في أفدح الأخطاء.. ولقد حلّت معارف أهل البيت عليهم السلام - ومنها المعارف والعلوم الخفيّة لهم، وهي التي أوردتها المرحوم الآقا ميرزا مهدي الإصفهاني - هذا الإشكال؛ إشكال الجبر والتّفويض المطلقين بمفهوم وقاعدة «الأمرين الأمرين».

و الفلاسفة يعتقدون بأنّ «الذاتي لا يعلّل» أي أنّ ما هو ذاتي في غنى عن التعليل. فالماء منشأ للبرودة، كما أنّ النار منشأ للإحراق، فالبرودة والإحراق ذاتيان في الماء والنار.. وهذا الاعتقاد والمذهب والقول وارد في آخريّات الفلاسفة في باب تنبّع علل الحوادث والأعمال.. أمّا أهل بيت العصمة والظّهارة عليهم السلام فيرجعون هذا الاختلاف الذاتي إلى «عوامل الدّر» ويقولون بأنّ من بادر وأسرع في تلك العوالم إلى التّصريح بكلمة (بلى) فإنّه في هذه الدّنيا ستكون له ما يتناسب وتلك الطّاعة من الآثار الوجوديّة.. والواقع هو أنّه في هذا البحث نجد معارف أهل البيت عليهم السلام لدى البحث عن العلل و تنبّعها قد سبقوا الفلاسفة وتقدّموا عليهم..

فمعارف أهل البيت عليهم السلام تكشف عن أنّه بعد أن تحدّد وتميّز المطيع من العاصي في عالم الأظلمة والأشباح؛ عمد الله تعالى إلى خلق الخلائق و خلطهم بالطينات.. و خلط طين الأظلمة الشّريفة بطين الإظلمة الخبيثة وكذا العكس.. لماذا؟! إتماماً للحجّة وإظهاراً للعدل؛ حيث مزج سبحانه مادّة أرواح السّعداء وأبدان السّعداء بمادّة أرواح الأشقياء و أبدان الأشقياء.. ثمّ منحهما القدرة والإختيار؛ «جبراً للكسر» فتجبر القدرة والإختيار

الكسر الوارد .. ولولا وجود إعطاء القدرة والإختيار؛ لاضطرَّ الإنسان إلى الكسر دوماً، و ذلك بحسب العلاقة بين الطِّينَات وآثارها؛ نظراً إلى أنَّ التَّأثيرَات تصدر عن المؤثِّرات بشكل طبيعي .. ولكنَّ الله تعالى - جبراً للكسر - خلط هاتين الطِّينَتين وأعطاهما القدرة والإختيار، لئلا تستند إطاعة المطيع على شيء غير القدرة والإختيار.

إنَّ الإقتضاءات المتوقِّرة في الطِّينة الخبيثة تسوق الإنسان إلى العصيان وتلزمه، فلماذا يعرضه الله ﷻ للعذاب إذن؟ لأنَّه في التَّهْيَاة يكون المناخ في كل تأثير عائداً إلى القدرة والإختيار، ذلك ضمن سلسلة مراتب الآثار والمؤثِّرات ..

لقد خلط الله سبحانه بين الطِّينَتين، ومزج بين التُّور والتَّار، وعجن موادَّ الأرواح والأبدان مع بعضها .. إلا طينة محمَّد ﷺ وأهل بيت العصمة عليهم السلام .. حيث أسكنهم تحت العرش - أو موضع قدسي آخر - حفظاً لهم .. أمَّا غير طينة هؤلاء الأقرب إلى الرَّب المتعال، فطينات مخلوطة ممزوجة معجونة .. ولولم تكن كذلك؛ ما عصى شيعي ربِّه وما أطاع عدوِّهم .. ولكن حيث أعطوا - الشَّيعة - القدرة والحريَّة، وكان لقدرتهم وحرِّيَّتهم هذه أن تمنعهم من المعصية؛ ولم تمنعهم؛ فقد استحقَّوا العقاب؛ وبالعكس ..

أمَّا أعداء أهل البيت عليهم السلام؛ وهم من لا يستحقُّ الثَّواب الأخروي، فإنَّهم إذا ما مارسوا طاعة ما - وذلك بمقتضى مزج الطِّينة الطَّيِّبة - فإنَّ الله تعالى يثيبهم في الدُّنيا وسيحرمهم في الآخرة .. لأنَّ آثار كل شيء كما شعاع الشَّمس الذي يعود إلى ذات الشَّمس .. وهكذا هي الآثار الطَّيِّبة والأعمال الصَّالحة التي تصدر عن الطِّينة الخبيثة؛ ستعود في القيامة إلى الطِّينة الطَّيِّبة؛ لأنَّها مرتبطة بها وعائدة إليها أساساً .. فلا تعود إلى الطِّينة الخبيثة .. وإنَّ تحديد من هو صاحب الطِّينة الخبيثة الغالبة؛ وتحديد من هو صاحب الطِّينة الطَّيِّبة الغالبة أمر في غاية العسر .. إذ قد تكون المادة الأصليَّة لطينة شخص طيِّبة، ولكنَّها لدى الإختلاط المستحدث؛ غلبت عليها طينة خبيثة، أو بالعكس .. وعليه؛ فإنَّ مجرَّد صدور أعمال صالحة كثيرة؛ أو مجرَّد تشيُّع ظاهري لا يجنِّد دليلاً على السَّعادة الحقيقيَّة .. ف«لا يُغزَّن أحدٌ بأعماله» يعني خطل الإغترار بالأعمال الصَّالحة - الظَّاهريَّة - وإنَّما «لا تُغزَّن بإيمانه» مثل إيمان ابن ملجم الذي لم يَدُم.

فلا ينبغي أن تغرنا الأعمال والإيمان، «فإنَّ منه مستقرٌّ ومنه مستودع»، فلا ينبغي لأحد أن يطمئنَّ لنفسه حتَّى يلقى لحظة موته .. وعليه؛ فلا الغرور ولا اليأس أمران مطلوبان .. وإنَّما على المؤمن أن (يؤرجح) نفسه بحبلي الرِّجاء والخوف، لأنَّ عاقبة الأمر غير معلومة .. وليس لعابد زاهد أن يطمئنَّ، كما ليس لكافر فاسق أن ييأس .. وعلى ما تقدَّم، فإنَّ المؤثِّرات والمقتضيات في السَّعادة والشَّقَاوة، وشرف الظلِّ وسعادته أو دناءة الظلِّ وشقاوته غير منوطين بكثرة الطَّاعات أو المعاصي .. إذ أنَّ أعمال الجوارح ليست دليلاً - لوحدها - على السَّعادة أو الشَّقَاة ..

و حين هجوم الإبتلاءات؛ من فقر وذلِّ ونقص بالأموال والأولاد وغير ذلك، يعرف المرء على حقيقة كنهه؛ من حيث حبَّ الله ورسوله وأوليائه، كما هو الحال لدى الرِّخاء والرِّفاه .. فإنَّ أشكل مستشكل وقال بأنَّ الرِّوايات الواردة كثيرة في أنَّ صدور الطَّاعات والمعاصي منوط بمقتضى الطَّينة .. فجوابه: أنَّ هذا خلف وتناقض .. لأنَّ إعطاء القدرة والإختيار متأخَّر عن جميع الإقتضاءات، والفعل منوط بما هو متأخَّر؛ دون المقتضيات والمؤثِّرات المتقدِّمة في الرُّتبة .. فما كان متقدِّماً في الرُّتبة؛ لا يكون الحكم حكمه ولا القول قوله ...

وبعبارة أخرى؛ إنَّ إنكار تأثير المؤثِّرات والإقتضاءات من أفحش الأخطاء، إذ بين الآثار والمؤثِّرات نسبة طبيعيَّة، ولكنَّ إختلاف المؤثِّرات مستند إلى عامل آخر، وذلك ما هو ما بالذَّات لكلِّ إختلاف، ثمَّ إنَّ ما بالذَّات لا يتَّبع شيئاً آخر .. وهو القوة الغالبة القاهرة، وهي التي تحدِّد خاصيَّة الشَّيء وليس غيرها .. ففي عالم الأظلة والأشباح كان الإختلاف؛ إختلاف الطَّاعة والعصيان؛ وفي مواد البدن والرُّوح إختلافٌ عائد إلى الأجزاء وقطعات الماء البسيط .. ويعود الإختلاف في الأشياء ويؤدِّي إلى أن يكون شيءٌ بارداً وآخر حارّاً إلى الإختلاف في الطَّاعة والعصيان، حيث كان في عالم الأظلة والأشباح .. كما أنَّ الأرواح والأبدان كان لهما الطَّاعة والعصيان في عالمهما .. وإنَّما كان الإختلاف في الأجزاء وقطعات الماء البسيط حين عرضت عليها الولاية .. وعليه؛ فهذه الإختلافات في الطَّاعة والعصيان عائدة إلى أنَّ كلاًّ منهم كان لهم الإختيار في

نشأتهم، ولم يكن هذا الاختلاف باقتضاء مقتضى وتأثير مؤثر، وإنما كان مستنداً إلى محض القدرة والاختيار..

لقد خلق الله تعالى الأظلة بلا مادة، ثم أعطاها نور الولاية مع القدرة والاختيار و الشعور، ثم «أطاع المطيع وعصى العاصي عن علم و قدرة؛ عمداً وإختياراً» وقد خلق سبحانه الماء البسيط وملكه نور الولاية وجعله مختاراً قادراً.. فقبل بعض أجزاء الماء البسيط الولاية إختياراً.. وإلى هنا؛ لا علاقة لذلك بتأثير المؤثرات؛ حيث لم يكن ثم ذكر لتأثير المؤثرات الخارجية والمادية.. ولا ريب في أن سنة العدل والحكمة الإلهية أدت إلى أن تجعل الأظلة المطيعة في المادة المطيعة الشريفة، وكذا أن تجعل الأشباح العاصية في المواد الخسيسة الطاغية؛ عدلاً وعقوبة... وبعد هذه المرحلة حصل اختلاف المؤثرات والمقتضيات. فصارت الطينة الخبيثة تنتج أثراً خبيثاً وتتطلب ما يناسبها.. فيما الطينة الطيبة تنتج أثراً طيبة وتتبع ما يناسبها.. وهذه الطينات والمواد المالكة لنور الولاية صارت مؤثرة وموجدة للأثار المشابهة لها؛ ومفنية للأثار المضادة لها.. وهكذا يتبين أن التأثيرات المادية من الأمور الحتمية، لأن من لوازم مالكية المواد ظهور هذه الأثار المرتبطة بها.. فالنار حتم عليها الإحراق.. وكل شيء يمس الماء محكوم بالبرودة...

إذن؛ فصدور الأثار عن المؤثرات حتمي ولازم، لأن الله تعالى جعل هذه المؤثرات وحكم أن يكون لكل مؤثر أثره الخاص، وملكه نور الولاية، وجعل المؤثرات مستندة إلى الأثار.. وبايضاح هذا المطلب؛ يلزم بنا الإذعان بأن الأفعال الصادرة عن المختارين مستندة إلى القدرة والاختيار في عين وخضم إستنادها إلى المؤثرات..

**ويزداد وضوح هذا المطلب بعد ثلاثة تنبيهات:**

#### ١- صدور الفعل عن قدرة وإختيار

إن صدور الفعل عن قدرة وإختيار يعني أن الفعل غير خارج عن قدرة وإختيار الشخص.. فأنت بقدرتك توجد ماهية الفعل.. فهنا؛ توليد وتوالد جديد، وهو طبعاً

ليس حسيّاً ولا عقليّاً.. إنّما أنت توجد ماهيّة الفعل وتملّكه نور الولاية.. وهذا التملك يتمّ برضاك وحرّيتك دونما إحداث تغيير فيك... فحينما يوجد المرء فعلاً، يجد أنّ فاعل هذا الفعل ومالكة هونفسه، وأنّ هذا الفعل قد حصل وصدر بإذنه ورضاه.. فأنا مالك فعلي، وقد ملّكته من النور الذي في داخلي؛ أنا الفاعل.. والمراد من نور الفاعل الشيء الذي أعطاه إيّاه حين الخلقة، ليقوم بالفعل برضاه وحرّيته وإرادته.. وهذا الموضوع صادق في الله تعالى بالنحو الأكمل والأتمّ (الله يَزُوقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) فهو مختار بتمام المعنى، ولا أحد له القدرة على أن يسلبه حرّيته.. وقد أعطى سبحانه الإنسان الحرّيّة والاختيار لدى خلقته.

## ٢- غلبة قدرة الخالق

جعل الله تعالى الإحراق في النار، ولكنه سبحانه أقدر وأملك من قدرة النار على الإحراق، وهومتى أراد سلبها هذه القدرة.. ولذا؛ حين ألقى النبي إبراهيم عليه السلام في النار؛ أمر سبحانه النار أن تكون برداً وسلاماً وسلبها قدرتها على الإحراق: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ وبهذا يُعلم أنّ تأثير الإحراق من قبل النار ليس مطلقاً، وإنّما هو مشروط بإرادة الله وإذنه. وعليه؛ فإنّ تأثير المؤثرات مشروط بعدم غلبة قدرة القادر عليها.. وبخصوص الإنسان الذي هو من إبداع الخالق البارئ المصور، وملّكه فضائل من قبيل العلم والقدرة والحرّيّة.. فالمطلب هو المطلب، إذ في الإنسان مؤثّرات يمكن أن تغلب بقدرته.. والمرحوم الآخوند الخراساني في كتاب (الكفاية) وحين يناقش في بحث الطّلب والإرادة، وبعد استعراضه جملة الآراء المختلفة في هذا الباب، وبعد تناول الانتقادات والرّدود؛ يصرّح بعجزه في مبحث (الجبر والاختيار) بقوله: «يكسر رأس القلم حين بلغ هذا الحدّ»... ذكرت ذلك ليعلم المدى الذي واجه فيه العلماء الأمر المشكل في هذا البحث، وفي الأغلب عجزوا عن أداء المطلب حقّه، بل إنّ كثير منهم مالوا إلى القول بالجبر- نصّاً أو مضموناً- رغم أنّهم أثبتوا الاختيار- الاختيار الذي هو متفاوت مع كنه الاختيار في مبحث المعارف- إذ أنّهم أوردوا مفردة الاختيار، وباطنهم رأيهم ملائ بالجبـر.

فطبقاً لمعارف أهل البيت عليهم السلام، وإن كان تأثير المؤثرات أمراً حقيقياً واقعياً، إلا أنَّ قدرة القادر غالبية على جميع المقتضيات و المؤثرات و فاعلة بتمام المعنى .. فإذا رأيت قدرة الله القاهرة غالبية على جميع الكائنات و جميع المؤثرات .. ستدرك - نوعاً ما - العظمة الإلهية و خوفه و خشيته سبحانه وتعالى . فإذا كان أهل البيت عليهم السلام - مع ما لهم من العصمة الكبرى و المعرفة التي لا تضاهى - يرتجفون خوفاً و خشية من الله جل و جلاله .. وإذا كان أمير المؤمنين علي عليه السلام يسأل ربّه الأمان من عذابه و قبول اللجوء إليه و هو عليه السلام يربّي شيعته على هذه المفاهيم المعرفية ... المترجم [فإنّما ذلك ليقينه بمالكية الله المطلقة .. إذ كانت لحظات خوف المعصوم لحظات دائمة متّصلة لا إنقطاع لها ..

### ٣- وعاء وجود القدرة

وعاء وجود القدرة بعد جميع المؤثرات، أي أنّ جميع المؤثرات كانت قبل القدرة و الاختيار و مقدّمة عليها .. و عليه؛ بعد جميع الإقتضاءات و التأثيرات و التثّرات و جذب الإنجذابات المادية التي تمنعها قدرة القادر .. و من هنا يتّضح أنّ غلبة المؤثرات على قدرة القادر موضوع لا أساس له .. فإذا توفّرت جميع عوامل المعصية و مع وجود حصول جميع هذه المقتضيات و المؤثرات تكون القدرة على القيام بفعل بعد جميع هذه العوامل .. أمّا الفلاسفة؛ فيؤمنون بعكس هذا المعتقد و يعدّون القدرة قبل هذه العوامل .. و نتعلّم ضمن معارف أهل البيت عليهم السلام أنّ «القدرة على الفعل» في طول هذه العوامل و تتجلى في آخر مرحلة .. و هكذا يكتشف خطأ مدخلية المقتضيات في القدرة و اختيار القادر، و يتّضح أنّ المقتضيات و المؤثرات ليس لها مقدار ذرّة في قدرة و اختيار الشّخص، و لذا؛ فإذا كانت ثمّ مدخلية للإقتضاء و المقتضيات و التأثير و المؤثرات، فهي منوطة بعدم منع القادر ... و يأتّضح الأركان الثلاثة المذكورة، ترون أنّه لا جبر في البين و لا تفويض.

فلا جبر؛ لأنّ القدرة و اختيار الإنسان تأتي بعد جميع المقتضيات و المؤثرات و العوامل . و لا تفويض؛ لأنّ قدرة الخالق غالبية على جميع ما سوى الله تعالى، و هو سبحانه أمّلك على ما يملك؛ و إن توفّرت للشّخص جميع عوامل المعصية، و كان مائلاً بقدرته

واختياره المعصية .. فما لم يأذن الله تعالى؛ لا تتحقق المعصية، لأنَّ قدرة الخالق أقدر على قدرة الإنسان، وهذا هو معنى «لا جبر ولا تفويض؛ ولكن أمرين الأمرين»

### أفعال الله التَّكْوِينِيَّة

إنَّ لقدرة الحق المتعال الغلبة على كلِّ شيء، وهي قاهرة في كلِّ تأثير وإقتضاء طبيعي مادّي .. إذن؛ بحفظ وجود تأثيرات المادَّة الطَّبيعيَّة، يكون تحقُّق الآثار مشروطاً بعدم المنع الإلهي .. مثال ذلك: إنَّ النَّار تحرق إذا أذن الله لها ولم يمنعها ولم يسلب قابليَّتها على الإحراق .. أمّا إن لم يأذن لها؛ فلن تفعل فعلها .. وقد ورد في الرواية: «لَا يَكُونُ شَيْءٌ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا بِسَبْعِ بَقْصَاءٍ وَقَدَرٍ وَإِرَادَةٍ وَمَشِيئَةٍ وَكِتَابٍ وَأَجَلٍ وَإِذْنٍ. فَمَنْ زَعَمَ غَيْرَ هَذَا فَقَدْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ أَوْ رَدَّ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ».



فهو جلَّ وجلاله المالك المطلق في كلِّ حال .. والمالك له حق التَّدخُّل والتَّصَرُّف في ملكه .. ولذا فإنَّ أملكية الله محفوظة دوماً وفي كلِّ حال له سبحانه .. وعليه؛ إذا كان للنَّار أن تحرق؛ فأحراقها إنَّما يكون بالإرادة والإذن اللَّذين توجَّهاً ويتوجَّهان إليها من جهة الله المالك المطلق .. نعم؛ إنَّ نسبة الإحراق إلى النَّار أمرٌ صحيح، ولكن لا ينبغي نسيان أنَّ ذلك مشروط بإذن الله. وبعبارة أخرى؛ إنَّ الله تعالى لم يجعل للنَّار قابليَّة الإحراق بصورة مطلقة؛ ولم يفوضها في ذلك، وإنَّما هو سبحانه قد حفظ حق الأملكيَّة والمالكيَّة المطلقة لنفسه في مسألة قابليَّة النَّار في وعلى الإحراق .. وليلاحظ أنَّه لا حاجة بأن يكرَّر الأمر للنَّار بالإحراق مراراً وتكراراً، فيقول لها في كلِّ حالة مادِّيَّة طبيعيَّة: إحرق، إحرق .. لأنَّ أمر الإحراق كان قد صدر لها وجعل فيها منذ البداية .. وإنَّما عدم صدور الأمر - الإستثنائي - لها بعدم الإحراق هو أمر لها بالإحراق، وأنَّه تعالى راضي لها بالإحراق، فيتحقَّق الإحراق .. بل خلقة النَّار كانت على أساس أن تكون مخلوقاً حارقاً .. وإنَّما تكون وتتحقَّق طاعتها لربِّها بامتثال أمره وجعله، وهو: الإحراق. أمّا إذا أصدر خالقها الأمر بعدم الإحراق (كما في قصَّة النَّبي إبراهيم عليه السلام) فإنَّ النَّار ستمتثل أمر ربِّها فلا تحرق .. وذلك أنَّ النَّار - في الأصل - مغلوبة ومقهورة بقدرة الله التي لا مردَّ لها ...

ويقول البعض: لا يمكن أن تكون النار غير حارقة، فإذا كانت العلة موجودة فلا بد من وجود المعلول ..

ولكن هذا القول في أصله التلقائي مؤيد للقول: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ فالله عاجز عن ضبط النار والسيطرة عليها والتحكم بها، هو إله مقيد مغلول ومعدم الإرادة .. أما إذا كان - سبحانه - خالقاً مالِكاً، فلا بد من كونه متسلطاً قاهراً غالباً على سبيل الإطلاق والاستقلال .. وما يستفاد من الآيات والروايات: له أن يمنع وله أن يأذن .. والتوسل إلى الله صادر من هذا المعنى .. والتبني الأكرم صلوات الله عليه وآله يقول: ينزل البلاء كالمطر، فتصدقوا .. وكأنكم بالصدقة تطلبون من الله أن لا تصيبكم آفة فيكون الله تعالى مانعاً دون ذلك .. ولهذا ذكرنا الله بالقول في كتابه المجيد: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ ﴿وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ ليتصل الإنسان بربه على الدوام ويلجأ إليه ويستغيث به، ولهذا كان باب الدعاء مفتوحاً، لأن وعاء قدرة الله متأخر عن مقتضيات والمؤثرات، ووعاء القدرة هذا قاهر وغالب على كل شيء.

إذن؛ فالإقتضاءات الطبيعية غير دخيلة في قدرة الله تعالى، لأنها محيطة ووعاؤها متأخر عن تحقق جميع الإقتضاءات. فإذا ما توفر اليقين في مسألة الأفعال التكوينية الصادرة عن الحق تعالى بأن وعاء الوجودي لقدرة الحق القادرة بعد جميع الإقتضاءات والمؤثرات يتيسر فهم المطلب الثاني بخصوص أفعال الإنسان الاختيارية أيضاً.

و صحيح أن الطينة الخبيثة تستدعي الميل إلى الأعمال الخبيثة، وأن الطينة الطيبة تستدعي الميل إلى الأعمال الطيبة الصالحة، ولكن القدرة الغالبة والقاهرة من جهة الفاعل في منع الإقتضاءات والتأثيرات هي المسيطرة من جهة القدرة التي وهبها الله تعالى .. لأن هذه القدرة تأتي بالترتيب بعد تحقق جميع الإقتضاءات والتأثيرات المادية وانجذابات الطينة ..

وكثيرة هي الأخبار الواردة والقائلة بأن تحقق القدرة والاستطاعة قبل وبعد الفعل وحين الفعل .. فالقدرة على القيام بالفعل في طول جميع مقتضيات وبعدها أيضاً ..

فيكون تجلّي القدرة بعد جميع المؤثرات.

بلى؛ إننا لا نردّ أثر المؤثرات؛ مثل الطينة وطهارة المولد .. فالعلماء الربّانيون الذين بلغوا المقامات الشامخة لا ريب في أنّ طينتهم الطّيبة كانت مؤثّرة في المقامات السّامية الّتي حظوا بها .. أو ذلك السّمر الدنيء؛ لا ريب أنّ نطفته ورحم أمّه وطينته الخبيثة كانت مؤثّرة للغاية في سوقه عن الخبائث .. ولكن المسألة المهمّة .. أنّ أولئك العلماء الربّانيين المرضيين عند أهل البيت (عليه السلام) كانوا لدى أعمالهم قائمين بقدرتهم و إختيارهم ورضاهم وإذنههم وحرّيتهم .. وكانوا قادرين أيضاً على منع المؤثرات الطّبيعيّة .. ومن هنا تفتح أبواب التّوفيق وأبواب الخذلان، بمعنى أنّه بأملكيّة الله المتعال تفتح .. حيث أنّ التّوفيق إلى إنجاز العمل الصّالح هو من جهة الله تبارك وتعالى .. فالله مؤثّر هنا؛ وهو الحاضر .. ولطالما نبّهتنا الروايات الكثيرة إلى التّركيز وعدم الغفلة عن ذكر الله والإيمان بأنّه حاضر ناظر دوماً وفي كلّ الأحوال، لأنّه سبحانه حافظ ومسيطر في مالكيّته في جميع اللحظات .. وهذا هو ما يجدر ربّ الأرباب؛ الله مالك الملوك .. وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ والمخلوق عاجز مطلق العجز عن سلب ربّه مالكيّته، هذا هو معنى: «لا تفويض، ولكنّ البعض يعدّون الله جلّ وجلاله مقيداً ويده مغلولة لقولهم بأنّ الخالق قد خلق الخلائق ثمّ هيأ الأسباب ونصب العلل ثمّ تنحّى جانباً .. وهؤلاء يقولون بأنّه إذا توفّرت العلّة والمعلول صار الفعل دون الحاجة إلى حضور الله وتفعيله مالكيّته .. فمتى ما كان الماء؛ كانت الرّطوبة، ومتى كانت النّار؛ كان الإحراق؛ ولا حاجة إلى ربّ الماء والنّار وجميع العلل ..»

وبين هذا وذاك لا نجد أحداً يتساءل عن طبيعة هذا الرّبّ المتنحّي عمّا خلق من العلل، ومن وما هذا الّذي يسمّي نفسه ربّ الأرباب؟ فإن كان الله كذلك، فلا معنى لقوله سبحانه: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ ولقوله في قرآنه المجيد: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ إنه تعالى في منظار أهل البيت (عليه السلام) «هو الغالب وهو المالك، وهو الحيّ الّذي لا يموت، وهو الّذي كلّ يوم هو في شأن؛ ولا يشغله شأن عن شأن» ...

إذن؛ لا جبر ولا تفويض، أي أنَّ للإنسان دوراً كما لله دور .. فاختيار ابن آدم محفوظ، وكذا الغلبة والقدرة والأملكيَّة لله ربِّ العالمين، وهذا هو معنى: «أمرِّين أمرين» وفي باب الأفعال الصَّادرة عن الموجودات المختارة قلنا: بأنَّ التأثير الحقيقي والمقتضي والمسبَّب مشروطة بإذن ورضا وعدم منع القادر، فإذا ما أسندنا الفعل إلى شخص، فإنَّ هذا الإسناد حقيقي، وكذا يمكن الإسناد إلى المؤثرات باستناد حقيقي .. فيكون كلا الإسنادين صحيحين بالتَّوضيح المتقدِّم .. ولذا نجد باب استحقاق العقوبة والثَّواب يفتح على مصراعيه .. وهكذا يعاقب الله جمعاً ويثيب جمعاً ...

والَّذي يلقي شبهة التَّوفيق والخذلان، إنَّما يريد نفي القدرة واختيار الإنسان. وردَّ هذه الشُّبهة في أنَّ ما هو موجود في وجوده من مقتضي الطَّاعة هو توفيق الله .. والَّذي يقتضي المعصية متوقِّر لديه أيضاً؛ فيكون موضع خذلان الله تعالى .. ولكن مع كلِّ ذلك، ومع أنَّنا نؤمن بأنَّ التَّوفيق والخذلان صادران من الله، فإنَّ صدور الطَّاعة والمعصية هو من الإنسان مع القدرة والإختيار .. وهذا يعني أنَّه إذا كان مقتضى التَّوفيق متوقِّراً في شخص، فإنَّه لدى العمل العبادي والإطاعة الصَّادر منه فهو ضمن وعاء قدرته واختياره، إلَّا أنَّ ثمَّ ميزة تميزه، وهي لأنَّ مقتضى الطَّاعة - التَّوفيق - متوقِّر فيه ويرغب بالأمور الشَّبيهة، فهو يسوق نفسه إلى إنجاز الأفعال الصَّالحة، فيؤدِّيها بأريحيَّة أتمَّ وأكمل .. ويقصد بمقتضى الطَّاعة المتوقِّر؛ كأرض طيِّبة متوقِّر فيها مقتضى قبول العمل بالمسحاة .. فيدفع إليها الماء .. هذا الماء الملائم لطبيعة الأرض .. وجميع ذلك منوط بإرادة الفلاح - مثلاً - الَّذي يعمل بالمسحاة أو لا يعمل ..

وكذلك الحال بالنِّسبة إلى موضوع الخذلان .. فوجود مقتضيات المعاصي يكون من جهة الله تعالى، فإذا كان إقتضاء المعصية موجوداً، وجدناه بصورة طبيعيَّة وغريزيَّة ينجذب إلى ما يشبهه، أي: المعصية .. ولكن يبقى أنَّ صدور المعصية يتحقَّق بقدرة وإختيار الإنسان، لأنَّ صدور المعصية متوقِّر في وعاء قدرته وإختياره، ولذا؛ يكون مستحقّاً للعقاب مستوجباً للعذاب ..

إنَّ تأثير المؤثرات غير قابل للإنكار أساساً.. وقد ورد في روايات جَمَّة إسناد الآثار إلى المؤثرات والعلل والأسباب والمقتضيات؛ التشريعية منها والتكوينية، ولكن المسألة الجديرة بالدقة هي أنَّ الأفعال الصادرة عن البشر لا تستند إلى شيء سوى قدرة وإختيار الإنسان.. وهو لا يرى علاقة وتأثيراً لتلك المقتضيات المادية التي تغلب قدرته وإختياره.. وهذا الموضوع صادق في الطاعة والمعصية معاً؛ ولا فرق بينهما.. وهكذا يتبيَّن إستحقاق العقوبات وصحة إعطاء المثوبات، لأنَّ للقادر مدخلية تامة في تأثير هذه المؤثرات، ولهذا يعاقب ويثاب.. ومن هنا يفتح باب آخر؛ وهو حقيقة التوفيق والخذلان..

وهنا نتقدَّم بمسألة هامة دقيقة؛ وهي أنَّ الإنسان في عالم الأظلمة لم يعص ولم يطع تبعاً للمقتضيات والمؤثرات، وإنما أطاع لمجرد الطاعة، وعصى لمجرد المعصية و بمحض قدرته وإختياره.. أما الطاعة والمعصية في عالم النشأة المادية.



## آثار ونتائج النظرية

نظراً لما تقدَّم من بحوث، فإنَّه يفتح ثلاثة أبواب من أبواب المعارف هنا؛ الرياضات والمجاهدات، التوفيق والخذلان، الإمتحان والإختبار.

### ١- باب الرياضات والمجاهدات

الإنسان وبالرغم من توفُّر جميع المؤثرات؛ له أن لا يعصي.. فهو قادر على مقاومة المؤثرات ومواجهتها، فيعتصر نفسه فلا يعصي.. ولهذا؛ كان للرياضات والمجاهدات أجروثواب، ولو تكن هذا المؤثرات المادية والمقتضيات الطبيعية لم تكن ثمَّ مجاهدة ورياضة في البين؛ كما هي غير مطلوبة من الملائكة، إذ لا وجود في حياتهم ممَّا يقتضي المعصية أو ما يقعدهم عن الصَّلاة - مثلاً - ويدفعهم إلى المعصية.

### ٢- باب التوفيق والخذلان

نفس إيجاد المقتضي والدافع إلى أداء صلاة الليل - مثلاً - مثل مزج الطينة الخبيثة بالعليين، أو مثل الرغبة النفسية بالحوار والقصور والغلمان التي تسبب يقظة الإنسان

لأداء صلاة اللّيل .. هو عموماً توفيق تكويني من جانب الله تعالى .. لأنّ هذا الميل ليس في يد الإنسان .. وإن كان الشّوق إلى صلاة اللّيل وإلى حمل القرآن وتلاوته آناء اللّيل بأيدينا لحرصنا على أن يكون هذا الشّوق والرّغبة متوفراً فينا دائماً .. ممّا يشير إلى أنّ هذا الشّوق وهذه الرّغبة عبارة عن «توفيق من الله» توفيق لم يمنحه الله تعالى لكثير من الأفراد .. والحال أنّه سبحانه قد أعطى توفيقاً تكوينيّاً وكذا توفيقاً تشريعياً .. فنزول البلايا بمثابة توفيق تكويني؛ لأنّها سبب في الإلتجاء إلى ربّ العالمين، وهونعمة عظيمة .. أمّا التّوفيق التشريعي؛ فمثل إنذار الرّسل وتبشيرهم، حيث يؤدّيان إلى إيجاد وتعاضل الرّغبة في الطّاعات والنّأي عن المعاصي .. ومعلوم أنّ في إزاء هذا الإلقاء الإلهي والرّحمان، ثمّ إلقاء شيطانيّة؛ من الجنّ والإنس تستهدف الإنسان المؤمن ..

وفي أنماط الخذلان ثمّ ما هو تكويني وما هو تشريعي .. فالخذلان التّكويني مثل الغنى والثّروة والنّعمة والعيشة المرفّهة .. فإنّ تسبّب ذلك بغفلة ونسيان؛ كان «الخذلان من الله». (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ \* أَن رَّاهُ اسْتَغْنَى) وثمّ خذلان تشريعي، مثل عدم الإستماع لبشارات الأنبياء.

### ٣- باب الإمتحان والاختيار

لولم تكن المؤثّرات والمقتضيات، ما مال قلب إلى حيث المعاصي .. فالإنسان يمتحن ترك المعاصي وفعل الطّاعات، لأنّ قلبه مائل إلى المعصية وقرب الطّاعة، فكان ينبغي أن يكون الإمتحان بهما، فلا يعصي المرء بقدرته وإختياره؛ أو يميل بهما نحو الطّاعة .. وهكذا يتجلّى لزوم وجود المؤثّرات والتأثيرات، وهذا ما يدعى: «لطف من الله».

إنّ الطّريق الذي اختطّه أهل البيت (عليهم السلام) لتهديب النّفس وإكتساب الأخلاق الكريمة وأرشدوا إليه؛ طريق قائم على أساس (معرفة الله) زال الخوف والبخل والشّهوة الباطلة، لأنّ الإنسان سيعي أنّ الغنيّ بالذّات هوربّ العالمين، فيما الباقون متّكئون عليه .. وإن أكرمك الله بمعرفته؛ وجدت كلّ الكمال وتحصّلت عليه .. وعليه؛ يلزمنا أن نطلب منه

و ندعوه دوماً بهذا الدعاء:

«اللَّهُمَّ عَرِّفْنِي نَفْسَكَ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي نَفْسَكَ لَمْ أَعْرِفْ نَبِيَّكَ، اللَّهُمَّ عَرِّفْنِي رَسُولَكَ [نَبِيَّكَ] فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي رَسُولَكَ لَمْ أَعْرِفْ حُجَّتَكَ، اللَّهُمَّ عَرِّفْنِي حُجَّتَكَ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي حُجَّتَكَ ضَلَلْتُ عَنْ دِينِي»

ولإكتساب هذه المعرفة الإلهية، على الإنسان أن لا يوسوس لنفسه، بل عليه أن يجعلها في مسار الحق، وأن يتعبّد ويطيع، وأن يهذب ويزكي نفسه ويقاومها، وأن يطلب المدد من ربّه المتعال.

... فكيف الطريق إلى ذلك؟

قال العلامة: «الاستعانة بالحق على النفس».

#### المصادر

القرآن الكريم.

نهج البلاغة.

- ١- الأخوند الخراساني، محمّد كاظم بن حسين، كفاية الأصول، قم، مؤسسة آل البيت عليه السلام، ١٤٠٩ ق.
- ٢- ابن بابويه، محمّد بن علي، التوحيد، قم، جامعة المدرّسين، ١٣٩٨ ق.
- ٣- ابن طاووس، علي بن موسى، مهج الدعوات، قم، دار الدخائر، ١٤١١ ق.
- ٤- الأسترآبادي، علي، تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الظاهرة، قم، النشر الإسلامي، ١٤٠٩ ق.
- ٥- السبزواري، هادي بن مهدي، شرح المنظومة، طهران، نشر ناب.
- ٦- سعدي، مصلح بن عبدالله، كليات سعدي (فارسي).
- ٧- الغزالي، محمّد بن محمّد، إحياء علوم الدين، ط. دمشق.
- ٨- الفيض الكاشاني، محمّد بن شاه مرتضى، المحبّة البيضاء في تهذيب الإحياء.
- ٩- الكفعمي، إبراهيم العاملي، المصباح، قم، دار الرضي ط. ثانية، ١٤٠٥.
- ١٠- الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي، طهران، دار الكتب الإسلامية، ط. ٤، ١٤٠٧ ق.
- ١١- المجلسي، محمّد باقر، مرآة العقول، طهران، دار الكتب الإسلامية، ط. ٢، ١٤٠٤ ق.
- ١٢- التّوري، حسين بن محمّد تقى، مستدرک الوسائل، قم، مؤسسة آل البيت عليه السلام، ط. ١، ١٤٠٨ ق.

